بحوث

كلية اللغة العربية

المملكة العربية السعودية / مكة المكرمة / جامعة أم القرى / كلية اللغة العربية

السنة الثانية _ العدد الثاني ١٤٠٤ / ١٤٠٥ هـ

« سنوية »

الأصوات العربية

بين الخليل وسيبويه

للدكتور
عليان الحازمي

الأصوات العربية بين الخليل وسيبويه

د. عليان بن محمد الحازمي
أستاذ مساعد - كلية اللغة العربية

(أ) تمهيـــد :

لعل الحقيقة تفرض علينا أن نقول إن الدراسات الصوتية بدأت بداية حسنة عند اللغويين العرب إبان عهد التدوين ، وكانت هذه الدراسات تهدف إلى المحافظة على النطق السليم لكيلا يتسرب الخطأ إلى الألسن فتتعاجم ، والقرآن الكريم هو الباعث الرئيسي لظهور الدراسات اللغوية وتوجيه أساليب التأليف فيها . وإسهام العرب في مجال علم الأصوات يدل على سبق علمي وقوة في الملاحظة والاستنتاج . فلقد كانت لهم جهود موفقة في تقسيم الأصوات وتصنيفها ؛ غير أننا نلاحظ أن دراسة الأصوات جاءت متفرقة ومتناثرة ومقتضبة أحيانا مع المباحث اللغوية الأخرى وذلك لأن علوم اللغة لم تكن قد انفصلت بعد عن بعضها البعض فكانت لا تزال في مراحل التكوين الأولى .

والدراسات اللغوية جميعها بما فيها دراسة الأصوات بدأت في القرن الأول الهجري ولم تؤت ثمارها إلا في القرن الثاني الهجري . فلقد شهد هذا القرن نشاطا لغويا . وبرزت فيه مدرستا البصرة والكوفة كمركزين ثقافيين يتنافسات لتسنم القيادة الفكرية .

ومن المعروف إن مدرسة البصرة سباقة في المضمار اللغوي فعلى يد الخليل بن أحمد ظهر أول معجم عربي وعلى يد سيبويه ظهر الكتاب .

يقول الدكتور شوقي ضيف : « وكان طبيعيا أن أبدأ بالمدرسة البصرية لأنها هي التي وضعت أصول نحونا وقواعده ومكنت له من هذه الحياة المتصلة التي لا يزال يحياها إلى اليوم وكل مدرسة سواها فإنما هي فرع لها وثمرة تالية من ثمارها »[1] .

---

(١) المدارس النحوية ص ٥ .

ولمعجم الخليل بن أحمد (كتاب العين) أهمية علمية كبرى فبالاضافة إلى أنه أول معجم عربي حاول مؤلفه فيه أن يجمع بطريقة إحصائية شتات اللغة فهو كذلك ـــ فيما يبدو لنا ـــ أول عمل تناول دراسة أصوات اللغة العربية ومخارجها .

وكتاب العين شغل العلماء منذ ظهوره ، وتشعبت الآراء فيه ما بين منكر على الخليل تأليفه ، وآخر يذهب على أنه من عمل تلميذه الليث بن المظفر ، وثالث يرى أن الخليل بدأ بتصنيفه وأتمه غيره(١) .

ولكن هذا الخلاف الذي امتد منذ عصر صاحب الفهرست ، بل لعله سبق ذلك ، حتى وقتنا الحاضر ، قد تصدى له الدكتور عبدالله درويش بالعرض المفصل والمناقشة المتسقصية ، حتى أنه خصص له معظم صفحات الباب الثاني من كتابه عن المعاجم العربية وقد انتهى الدكتور عبدالله درويش إلى أن كتاب العين لا يمكن أن ينسب إلى غير الخليل ، يقول : « ونخلص من كل هذا إلى أن كتاب العين لا يمكن أن يكون من تأليف غير الخليل ، بحيث أنه من التجني على الواقع أن نكتب على غلاف الكتاب اسما غير اسم الخليل أو نضع في فهارس المكتبات كتاب العين تحت اسم غير اسم الخليل »(٢) .

وهكذا فإننا نستطيع هنا أن نتناول كتاب العين بالدراسة ونحن مطمئنون تمام الاطمئنان أنه من عمل الخليل . ثم إن فكرة النظام الصوتي الذي اتبع في ترتيب العين لم تسلم كذلك من الشك ، فيرى بعض الباحثين أن الخليل مقلد فيها وأنه اقتبسها من نظام الأصوات في اللغة السنسكرتية . وقد تم في هذا الصدد الربط بين علاقة الخليل بابن المقفع فيقول الدكتور صابر أبو السعود : « وأفاد الخليل كثيرا من صداقته لابن المقفع الذي كان عقله جامعا لثقافات تتسم بالتعدد والتنوع . منها الفارسي ثقافته الأصلية والهندي واليوناني بل الثقافة العربية الاسلامية »(٣) .

(١) ابن النديم الفهرست ص ٧٠ . انظر كذلك أحمد عبدالغفور عطار ، الصحاح ومدارس المعجمات العربية ص ٨٥ .

(٢) المعاجم العربية مع اعتناء خاص بمعجم العين ص ٧٦ .

(٣) القياس في النحو العربي من الخليل إلى ابن جني ص ٥١ .

أما المستشرق [جون هاي ود] « فيرى أن كتاب العين قد أُلف في خراسان البلد الأصلي لليث بن المظفر ومنطقة خراسان منطقة على اتصال بالثقافة الهندية ، وعلى الرغم من عبقرية الخليل إلا أنه يستبعد أن تكون فكرة الترتيب الصوتي الذي سار عليه الخليل بن أحمد من بنات أفكاره ؛ ويرى أنها من المحتمل جدا أن تكون مقتبسة من اللغة السنسكرتية »[1] .

ونحن لا ننكر استفادة العلماء العرب في ذلك الوقت من روافد الثقافات الفارسية والهندية وحضارة بلاد الرافدين وغيرها من الثقافات غير أننا نرى أن الخليل من الرواد الأول الذين تنبهوا لأهمية وصف الأصوات ونظام التفعيلات الذي انتهجه وسار عليه حين استنبط أوزان الشعر العربي يوحي برهافة في الحس وتذوق للأصوات ، ثم إن مقدمة العين نفسها توحي بأن الخليل لم يصل إلى فكرة ترتيب معجمه حسب مخارج الحروف إلا بعد جهد ومعاناة مما يؤيد ابتكار الخليل لهذا الترتيب .

(ب) الأصوات العربية عند الخليل :

لقد اختبر الخليل جميع الأصوات ونظر إليها بمنهج اختياري وصفي دقيق ومنهج الخليل في هذا الشأن يضارع المناهج العلمية الحديثة التي يقوم عليها علم الأصوات . يقول الخليل : « فأعمل فكره فيه فلم يمكنه أن يبتدىء التأليف من أول أ ب ت ث وهو الألف ؛ لأن الألف حرف معتل فلما فاته الحرف الأول كره أن يبتدىء بالثاني وهو الباء إلا بعد حجة واستقصاء النظر ؛ فدبرّ ونظر إلى الحروف كلها وذاقها فصير أولاها بالابتداء أدخل حرف منها في الحلق[2] . وإنما كان ذواقه إياها أنه كان يفتح فاه بالألف ثم يظهر الحرف نحو [اب ات اح اع ..] » .

وكان من نتائج هذا الاختبار أن جاء لنا الخليل بأبجدية أصواتية على النحو الآتي :

ع ح هـ خ غ — ق ك — ج ش ض — ص س ز — ط د ت —

(١) Arabic lexicography. P. 26 .

(٢) كتاب العين ص ٥٢ .

ظ ث ذ ـــ د ل ن ـــ ف ب م ـــ و ا ي همزة[1] .

والخليل في ترتيبه هذا يكاد يقرب من الترتيب العلمي الموجود في جدول الأبجدية الصوتية العالمية[2] ؛ لولا وصفه الهمزة في آخر الأبجدية .

فالأبجدية الصوتية العالمية قسمت أصوات الحلق كالآتي ع ح / غ خ / أ هـ .

وبمقارنة أبجدية الخليل بالأبجدية الصوتية العالمية نلاحظ مدى التطابق بينهما مع إجراء تغيير بسيط في أبجدية الخليل بجعل أصوات الأطباق الاربعة المعروفة على حدة ، ويقرن صوت الميم « م » مع النون ، والهمزة مع الهاء فيصبح الترتيب كالآتي وهو مطابق للأبجدية العالمية ع ح / أ هـ / خ غ / ق ك / ج ش / س ز / د ت / ث ذ / ر ل / ن م / ف ب / و ي / [ض ظ ط ص أصوات الأطباق] .

ولعل السبب الذي جعل الخليل يضع الهمزة في آخر أبجديته هو أنه وجدها تتغير في النطق ما بين التسهيل والتحقيق ، مع أنه يعترف أن الهمزة أعمق حروف الحلق مخرجا .

يقول : « وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتوتة مضغوطة فإذا رفه عنها لانت فصارت الياء والواو والألف عن غير طريقة الحروف الصحاح »[2] .

وقد استطاع الخليل بعبقريته الفذة أن يبين أن للأصوات مخارج تختلف من صوت إلى آخر ، يقول : « في العربية تسعة وعشرون حرفا منها خمسة وعشرون حرفا صحاحا لها أحياز ومخارج »[3] . فالمخرج هو المكان الذي تتم فيه عملية إصدار الصوت . ومن هنا كانت مصطلحات الخليل في الغالب تمثل المقابل الدقيق لمصطلحات علم الأصوات عند الغربيين .

فالأصوات الحلقية هي التي تخرج من الحلق لكن هذه الأصوات تختلف في مواضعها من الحلق وهذا ما عبر عنه الخليل حين قال « لها أحياز » . يقول : « فأقصى الحروف كلها العين ثم الحاء ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين ، ثم

---

(١) The International Phonetic Alphabet .

(٢) كتاب العين ص ٥٨ .

(٣) كتاب العين ص ٦٤ .

الهاء ولولا هتة في الهاء (وقال مرة ههة) لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من الحاء ، فهذه ثلاثة أحرف في حيز واحد بعضها أرفع من بعض ثم الخاء والغين في حيز واحد كلهن حلقية »[1] .

ووَصْفُ الخليل السابق يوحي بأنه عرف من الناحية التشريحية أن الحلق مقسم إلى ثلاثة أجزاء .

ثم يصف صوتي القاف والكاف بأنهما لهوتيان مع إيضاح أن الكاف أرفع ؛ أي أقرب في مخرجها من صوت القاف . يقول : « والكاف أرفع »[2] . وهذا يتفق مع وصف العلماء المحدثين لأن العملية التكوينية لصوت الكاف تتم في أقصى الفم عند الجزء اللين من الحنك بالقرب من اللهاة ، حيث يحتبس الهواء برهة من الزمن ما بين أقصى اللسان والجزء القريب من اللها . ثم يندفع محدثا الصوت الانفجاري نتيجة انفصال العضوين وهما أقصى اللسان والجزء اللين من سقف الحنك .

أما وصف الخليل للجيم والشين والضاد بأنها شجرية « لأن مبدأها من شجر الفم »[3] فيتسم بالتعميم والشمول حيث إن مصطلح شجرية مبهم والمعجم الوسيط يحدد شجر الفم بأنه ما بين السقف واللسان[4] .

وصوتا الجيم والشين يتكونان من التقاء مقدمة اللسان مع الجزء الصلب من سقف الحنك ؛ أما الضاد فليست من الأصوات الحنكية وإنما هي صوت لثوي جانبي من بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس .

ويصف الخليل السين والزاء بأنها أسلية ، « لأن مبدأها من أسلة اللسان وهي مستدق طرف اللسان »[5] .

---

(١) كتاب العين ص ٦٤ .
(٢) المرجع نفسه ص ٦٤ .
(٣) كتاب العين ص ٦٥ .
(٤) المعجم الوسيط جـ ١ ص ٤٧٥ .
(٥) كتاب العين ص ٦٤ .

وأصوات الصاد والسين والزاي أصوات احتكاكية تنشأ من احتكاك الهواء ما بين اللسان والأسنان .

كذلك يصف الخليل « الطاء والتاء والدال بأنها نطعية لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى »[1] والنطع كما يحدده المعجم الوسيط « هو موضع اللسان من الحنك »[2] .

والملاحظ أن أصوات الطاء والتاء والدال أصوات لثوية تخرج من أصول الثنايا واللسان والدكتور إبراهيم أنيس أشار بأن مصطلح النطع قد جانبه التوفيق[3] . أما وصف الخليل للفاء بأنها من الأصوات الشفوية حين قال : « والفاء والباء والميم شفوية »[4] فهذا يخالف ما ننطق بها الآن إذ تنطق شفوية أسنانية .

ولعل الفاء التي ذكرها الخليل هي الصوت « ب » الذي أشار إليه جان كانتنيو حين بيّن أن النظام الصوتي للغات السامية يتألف من مجموعات مثلثة أي ثلاثة أحرف « تخرج من مخرج واحد أحدهما مهموس وثانيهما مجهور وثالثهما مفخم محايد من حيث الجهر »[5] .

پ	ب	b	p
« ب »		« b »	

ويرى « إن هذا الثالوث الشفوي تهدم بقلب الباء « p » فاءا وباضمحلال الباء المفخمة »[6] .

وقد وصف الخليل الراء واللام والنون « بأنها ذلقية »[7] وفي هذا الوصف توسع وتعميم ، فاللسان له أهمية كبرى في نطق الأصوات فهو عضو متحرك مرن كما يصفه علماء

(١) كتاب العين ص ٦٥ .

(٢) المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٩٣٨ .

(٣) الأصوات اللغوية ص ١٠٨ .

(٤) كتاب العين ص ٦٥ .

(٥) دروس في علم الأصوات العربية ص ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

(٦) المرجع نفسه ص ٢٩ .

(٧) كتاب العين ص ٦٥ .

الأصوات المعاصرون ، ويكاد يشترك في تكوين معظم الأصوات ؛ أما أن توصف أصوات معينة بأنها ذلقية لأنها تخرج من ذلق اللسان فهذا ما لا تقره التجارب الحديثة فاللسان ما هو إلا عضو مشارك في تكوين هذه الأصوات .

ويصف الخليل الياء والواو بأنها هوائية حيث يقول : « والياء والواو والألف والهمزة هوائية في حيز واحد لأنها لا يتعلق بها شيء »[٢] ويقصد الخليل بالألف صوت اللين الطويل « آ » والهمزة المسهلة التي تصبح صوت لين أيضا « آ » .

ووصف الخليل السابق لأصوات الياء والواو يطابق ما قاله علماء الأصوات والمحدثون حين وصفوا الواو والياء بأنها أصوات شبيهة بأصوات اللين « Semi vowels » لأن الهواء الخارج من الرئتين يمر بالحنجرة وبالحبال الصوتية دون أن يعترض بعائق يعوقه على عكس ما يلاحظ في الأصوات الساكنة .

مما سبق نستطيع أن نقول إن ملاحظات الخليل عن الأصوات تمثل المرحلة الأولى لتكوين علم الأصوات حيث أنها تحتوي على آراء دقيقة تدل على قوة في الملاحظة والاستقصاء ؛ فآراء الخليل وملاحظاته كانت المنطلق الذي استوحى منه علماء القرون اللاحقة وضع المصطلحات الدقيقة لوصف الأصوات فزادوا وشرحوا وفسروا وتداركوا ما فات على الخليل وخير مثال على ذلك دراسات سيبويه حول الأصوات فإنها تكاد تكون متكاملة .

(جـ) سيبويه ودراسة الأصوات :

لقد ورث سيبويه علم الخليل فكان مريده المبرز وتلميذه الوفي فأخذ عنه علم العربية وكتابه (الكتاب) خير دليل على ذلك فلقد قعد فيه القواعد ووضع أسس فلسفة النحو حيث نقل آراء الخليل[٢] وشرح مذهب البصريين . وكتاب سيبويه ليس كتاب نحو فقط وإنما هو مزيج من الدراسات اللغوية[٣] بنحوها وصرفها وأصواتها . لقد عقد سيبويه في

(١) المرجع نفسه ص ٦٥ .

(٢) د. مهدي المخزومي ، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ص ٣٣ .

(٣) خديجة الحديثي ، كتاب سيبويه وشروحه ص ٧٧ ، ٧٨ .

(الكتاب) بابا[١] تحدث فيه عن أصوات العربية ومخارجها ، ولأول مرة نرى منهجا علميا في تقسيم الأصوات ووصفها ووضع مصطلحات علمية آية في الدقة مما يدل على قوة في الملاحظة ومنهجية ملتزمة .

أ ـ تحدث عن عدد أصوات العربية وأحصاها بأنها تسعة وعشرون . يقول في باب الادغام : « هذا باب عدد الحروف العربية ومخارجها ومهموسها ومجهورها وأحوال مجهورها ومهموسها واختلافها فأصل حروفه العربية تسعة وعشرون حرفا »[٢] .

وقد انتقد المستشرق الألماني « شاده » « استخدام سيبويه لفظ حرف لأن الحرف يدل على الرمز المكتوب وليس المنطوق وكان الأجدر بسيبويه أن يستعمل لفظ صوت »[٣] .

ومع أننا نوافق رأي شاده ، في التفريق ما بين الحرف والصوت غير أن علماء العربية عند دراستهم للأصوات اتجهوا إلى وصف الأصوات من خلال الحروف . يقول الدكتور تمام حسان : « ولكن سيبويه وأصحابه حين تصدوا لتحليل الأصوات العربية كان بين أيديهم نظام صوتي كامل معروف ومشهور للغة العربية وكانت الحروف التي يشتمل عليها هذا النظام قد جرى تطويعها للكتابة منذ زمن طويل فكان لكل حرف منها رمز كتابي يدل على الحرف في عمومه دون النظر إلى ما يندرج تحته من أصوات »[٤] .

والحروف التسعة والعشرون التي ذكرها سيبويه هي الأصوات التي ترد في اللغة العربية الفصحى وهي على النحو التالي كما رتبها سيبويه :

ء ا هـ ع ح غ خ ك ق ض ج ش ل ر ن ط د ت ص ز س ظ ذ ث ف ب م و

وبالاضافة إلى هذه الأصوات التسعة والعشرين أشار سيبويه على وجود ستة أصوات فرعية (allophones) وهذه الأصوات الستة فروع من الأصول « التسعة والعشرين » وهي

(١) راجع الجزء الثاني ، ص ٤٠٤ ، طبعة بولاق .
(٢) الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٤ .
(٣) د. إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ص ١١٢ .
(٤) اللغة العربية معناها ومبناها ص ٥١ .

كثيرة [أي شائعة على الألسن] ، يؤخذ بها وتستحسن[1] في قراءة القرآن والأشعار ، وهي :

١ ــ النون الخفيفة .

٢ ــ الهمزة التي بين بين .

٣ ــ الألف التي تمال إمالة شديدة .

٤ ــ الشين التي كالجيم .

٥ ــ الصاد التي كالزاي .

٦ ــ ألف التفخيم بلغة أهل الحجاز .

ثم ذكر سيبويه وجود أصوات غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترضى عربيته كما أنها « لا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر » وهي :

١ ــ الكاف التي بين الجيم والكاف[2] .

٢ ــ الجيم التي كالكاف .

٣ ــ الجيم التي كالشين .

٤ ــ الضاد الضعيفة .

٥ ــ الصاد التي كالسين .

٦ ــ الطاء التي كالتاء .

٧ ــ الظاء التي كالثاء .

٨ ــ الباء التي كالفاء .

فسيبويه وصف جميع الأصوات التي لاحظ دورانها على الألسن في عصره المستحسن منها والمستهجن وسجلها بأمانة علمية موضحا أن جميع الأصوات المستحسنة منها والمستهجنة لا تتضح إلا عن طريق السماع والمشافهة ، أو عن طريق التكلف والمحاولة كنطق الضاد الضعيفة . وأوضح سيبويه كذلك مخارج الأصوات العربية فذكر منها ستة عشر

---

(١) سيبويه جـ ٢ ص ٤٠٤ .

(٢) سيبويه جـ ٢ ص ٤٠٤ .

مخرجا[1] . وكلمة المخرج عند سيبويه تعني الموضع والمكان الذي يتكون فيه الصوت نتيجة التقاء عضوين من أعضاء النطق ، ولأول مرة نلاحظ أن سيبويه قد قسم الحلق إلى ثلاثة أجزاء[2] : فالهمزة والهاء والألف من أقصى الحلق ، ولا ندري السبب الذي جعل سيبويه بذكر الألف ، فلعل الألف هنا تعني ألف المد ، لا سيما وأن الهمزة إذا سهلت تصبح صوت لين .

أما العين والحاء فمخرجها من وسط الحلق .

أما الغين والخاء « فمن أدناها مخرجا من الفم » .

ويجب علينا أن نلاحظ أن سيبويه قد التزم التقسيم الثنائي حيث يبدأ بالصوت المجهور ثم المهموس . كذلك نلاحظ أن سيبويه يصف لنا بدقة علمية مخارج الحروف ، فلا يكتفي بالوصف المقتضب مثل الخليل كقوله لهوية أو شجرية ، وإنما يحاول أن يبين لنا الأعضاء التي تشترك في تكوين الصوت فعلى سبيل المثال يصف مخرج القاف بأنه « من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى »[3] فيلاحظ أن إخراج صوت القاف يتم في المنطقة القريبة من اللهاة ما بين أقصى اللسان والحنك الأعلى وهو في هذا يتفق مع علماء الأصوات الذين يصفون بدقة العملية التي يتكون فيها الصوت .

كما أن سيبويه تنبه لأهمية اللسان كعضو متحرك والدور الذي يقوم به ، فنراه يذكر طرف اللسان وحافة اللسان وأقصى[4] اللسان وظهر اللسان ووسط اللسان . فاللسان له أهمية كبرى في تكوين الأصوات حيث يتخذ معها أشكالا وحالات معينة .

كما أن سيبويه لم يخلط حين وصف الأصوات الشفوية كما فعل الخليل حين ذكر أن الباء والميم والفاء أصوات شفوية . فسيبويه وصف الفاء بأنها شفوية أسنانية ، يقول : « ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء[5] ومما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو » .

(١) نفس المرجع ص ٤٠٥ .
(٢) نفس المرجع ص ٤٠٥ .
(٣) سيبويه جـ ٢ ص ٤٠٥ .
(٤) نفس المرجع ص ٤٠٥ .
(٥) نفس المرجع ص ٤٠٥ .

(د) صفات الأصوات عند سيبويه :

لقد تنبه سيبويه لمعظم السمات والصفات التي تكون عليها الأصوات ، وملاحظاته حول الصفات شغلت طائفة من الباحثين المستشرقين ، مثل شاده ، كانتنيو ، فليسخ ، فولرز ، خصوصا وصفه للأصوات بأنها مهموسة أو مجهورة . ولا زالت دراسة كثير من الباحثين الذين يحاولون أن يصنفوا أصوات اللغة العربية ويقارنوها باللغات السامية الأخرى يعتمد على جهود سيبويه . يقرر الأستاذ بلاحايم في مقال كتبه حديثا حول صوتية نطق القاف السامية بأن دراسات سيبويه حول الأصوات تعتبر الأولى من نوعها ، فالنظام الصوتي الذي جاء به هو أقدم وصف للأصوات في اللغة العربية حيث إننا لا نجد وصفا قبله أو معاصرا له بسبب الضياع الذي تعرضت له هذه الدراسات ، ولأن الذين جاءوا بعد سيبويه قد اعتمدوا على وصفه فشرحوا وعلقوا وفسروا ذلك النظام الصوتي ولم يزيدوا شيئا[1] .

وتقسيم سيبويه للأصوات بأنها مجهورة ومهموسة يدل على دقة حسه ؛ وهو في هذا التقسيم يوافق علماء الأصوات الأوربيين حين يقسمون ويصفون الأصوات بأنها إما (voiced) وهو المجهور أو (voiceless) وهو المهموس .

غير أن شارحي سيبويه من المستشرقين وقفوا حيارى ، ما الذي يعنيه سيبويه بقوله « مجهور » أيعني به الصوت المرتفع العالي ؟ (loud, clear, sonorus) وكلمة « مهموس » هل تعني صوتا منخفضا وناعما ؟ لقد وقفوا مشدوهين أمام هذين الاصطلاحين ، وأخيرا رأوا أن سيبويه في تقسيمه هذا يقصد أن المجهور هو الصوت الذي تتحرك معه الأوتار الصوتية . لأن الهواء حين يخرج من الرئتين ويمر بالحنجرة بما فيها الأوتار الصوتية تكون فتحة لسان المزمار مقفلة فيحاول الهواء أن يجد له منفذا فيخرج فتهتز الأوتار الصوتية .

وأما المهموس فعلى العكس . تكون فتحة المزمار غير مقفلة فيجد الهواء له منفذا ، فيخرج دون أن يحدث صوتا .

فالمستشرق الألماني فلان ، وفولرز ، وشاده ، يرون أن كلمة المجهور تعني (voiced)

(1) The Fronting of Semitic G. and the Qal-Gal Dialect Split in Arabic .

وهي ضد المهموس (voiceless) ولكنهم مع هذا يتحفظون في تفسيرهم أي بمعنى أن سيبويه قد يعني هذا وقد يعني شيئا آخر .

وسيبويه حين وصف الصوت المجهور يقول : « بأنه حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت ، فهذه حال المجهور »[1] .

ويعيب الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه الأصوات اللغوية على الذين جاءوا بعد سيبويه بأنهم رددوا كلامه ولم يحاولوا أن يشرحوه ويفسروه بل اكتفوا بأن رددوا ما قاله وكأنهم لم يعوا ما قاله سيبويه وما الذي يريد أن يعرضه[2] ، بل إنهم رأوا أن فيه قدسية فالذين جاءوا بعد سيبويه لم يغيروا في النص ولم يتناولوه بالشرح والتفسير بل إنهم نقلوه حرفيا ، حتى شارحي كتاب سيبويه اكتفوا بأن نقلوا النص حرفيا دون تفسير وتحليل .

وعملية الجهر ما هي إلا عملية عضوية تتم حين يجد الهواء الخارج من الرئتين أن فتحة المزمار (glottis) قد أقفلت مما يجعل الوترين الصوتيين يقتربان من بعضهما البعض حينئذ يحاول الهواء أن يجد له منفذا فيندفع فيتحرك الوتران الصوتيان ويهتزان وبهذا تتكون عملية الجهر .

وسيبويه تنبه لهذه العملية العضوية فتراه يقول بأن الحرف [illegible] « أشبع الاعتماد في موضعه »[3] ويعني أنه صوت فيه قوة وجهارة ، إذ أن إشباع الاعتماد تعني بأن الصوت واضح مصوت وهو ما يطلق عليه الأوربيون (sonsrity) وكلمة اعتمد تعني الاتكاء والاستناد والوضوح .

والاعتماد كما يفسرها الدكتور إبراهيم أنيس بأنها « العملية العضوية المطلوبة في إصدار الصوت ! »[4] .

---

(١) سيبويه جـ ٢ ص ٤٠٥ .

(٢) د. إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ص ١٠٦ .

(٣) سيبويه جـ ٢ ص ٤٠٥ .

(٤) الأصوات اللغوية ص ١٢٥ .

ثم نرى أن سيبويه قد لاحظ في عملية إصدار الصوت المجهور أن الوترين الصوتيين يقتربان من بعضهما البعض فينقبضان لذا يقول : « ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه »[1] بمعنى أن الهواء الخارج وجد أن فتحة المزمار مقفلة وهي التي جعلت الوترين الصوتيين يقتربان من بعضهما البعض فكان الهواء ــ وهو ما عبر عنه سيبويه بكلمة « النفس » ــ لا يجد متسعا ، لذا نراه يحاول أن يجد طريقه مما يجعل الوترين يتذبذبان وهذه هي عملية الجهر .

أما عملية الهمس فهي على النقيض من الجهر فالمهموس في عرف سيبويه هو « حرف أضعف الاعتماد عليه في موضعه حتى جرى النفس معه » .

فالحالة في الهمس أن الصوت ليس فيه جهارة وقوة . لأن الاعتماد فيه ضعيف إذ أن الهواء الخارج يجد متسعا فيخرج دون أن تهز الأوتار الصوتية فيكون الصوت جاريا مع الهواء دون أن يجد ضيقا في مجراه بين الوترين الصوتيين .

كذلك يتعرض سيبويه لصفات الشدة والرخاوة في الأصوات فنراه يعرف الصوت الشديد بأنه هو الذي « يمنع الصوت أن يجري فيه »[2] . وهذا يتفق أيضا مع المصطلح الأوربي (plosive) الانفجاري إذ أن الصوت ينحبس لفترة ما بين عضوين من أعضاء النطق نتيجة لالتقائهما مثل صوت الباء والكاف والطاء والتاء والدال والقاف ثم ينطلق مرة ثانية .

فعلى حد تعبير سيبويه إمتنع الصوت أن يجري فيه حيث انه انحبس لفترة ما عند مخرج الحرف لالتقاء العضوين التقاء محكما .

أما الصوت الرخو فهو الصوت الذي يجري الصوت فيه ، بمعنى أن الهواء لا ينحبس إنما هو جار فبرغم التقاء العضوين اللذين يخرج منهما الصوت فإن الالتقاء لا يكون محكما . كما هو الحال في الأصوات الشديدة كما نلاحظ ذلك في صوت السين والصاد والضاد .

---

(١) سيبويه جـ ٢ ص ٤٠٥ .
(٢) سيبويه جـ ٢ ص ٤٠٦ .

كذلك نلاحظ أن سيبويه أسهب في تحليل وصف الأصوات فنراه يتعرض لما يسمى بالصوت الجانبي (Lateral) وهو الصوت الذي يتكون من انسياب الهواء من جانب اللسان ونقطة التقاء اللسان مع الأضراس الجانبية . ويطلق عليه سيبويه اسم الحرف المنحرف واشتقاقه من مادة [حرف انحرف] ، والحرف المنحرف على رأي سيبويه « حرف شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت »[1] (وهو اللام) .

ويعرف صوت النون والميم بأنها أصوات أنفية وهو ما يسمى بـ (Nasal) وهي الأصوات التي تتكون من خروج الهواء أو جزء منه من التجويف الأنفي (Nasal cavity) .

يقول : « ومنها حرف شديد يجري معه الصوت لأن ذلك الصوت غنة من الأنف ، فإنما تخرجه من أنفك واللسان لازم لوضع الحرف لأنك لو أمسكت بأنفك لم يجر معه الصوت »[2] .

ويذكر سيبويه الحرف المكرر وهو ما يسمى بـ (Rolled) والصوت المكرر ما يعرفه المحدثون من علماء اللغة بأنه يتكون نتيجة للانقفال والانفتاح المتكرر لمجرى الهواء لأن طرف اللسان يقرع قرعات سريعة على طرف اللثة .

ويتعرض سيبويه لوصف أصوات الواو والياء فيعرفها بأنها أصوات اتسعت مخارجها لهواء الصوت ، وهذا هو نص ما قاله المحدثون من علماء الأصوات إذ أنهم يرون إن عملية تكوين أصوات اللين تتم في موضع متسع .

فسيبويه وصف الواو والياء بأنها أصوات لينة لأن مخرجها يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما . يعني أن الهواء الخارج من الرئتين يمر بالحنجرة بما فيها الحبال الصوتية فتهتز ثم يمضي الهواء بعد عملية الاهتزاز بدون أن يعوقه عائق من أعضاء النطق الأخرى ، فنحن نعرف أنه عند تكوين أصوات الحنك مثل الجيم والشين يضيق الهواء أو : مجرى الهواء ما بين سقف الحنك واللسان وفي هذا الموضع تتكون هذه الأصوات بينما في صوت الياء والواو لا يحدث مثل هذا ، إذ أن الهواء يمر حتى إنك تستطيع أن تجري الصوت كما يقول سيبويه .

(١) سيبويه جـ ٢ ص ٤٠٦ .
(٢) نفس المرجع ص ٤٠٦ .

ثم يوضح سيبويه لنا بعض الصفات التي تتميز بها أصوات اللين الثلاثة : فيصف لنا الألف وهو يعني صوت اللين (آ : a) بأن هاوٍ ، واشتقاقه من مادة هوى وهو السقوط والانحدار ، ويذكر السبب قائلا : بأنه « حرف لين اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو »(1) .

وملاحظة سيبويه حول صوت اللين (آ : a) أثبتتها التجارب الحديثة حيث إن العملية التكوينية لهذا الصوت تتم والفكان العلوي والسفلي منفصلان كما أن الشفتين مفتوحتان غير منقبضتين وهذا يدلنا على أن صوت (آ) ذا سعة في مخرجه .

أما صوت اللين الواو (وُ : u) والياء هي (ي : i) فقد وصفهما سيبويه قائلا : « إنك قد تضم شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك » .

والملاحظ أن حالة الشفتين تكون في صوت اللين (وُ : u) مدورة ، أي تأخذ شكلا دائريا ومضموما كما تقرها التجارب الحديثة .

أما ملاحظة سيبويه حول صوت الياء (آ i) حين وصفه بقوله : وترفع لسانك قبل الحنك فهي نفس الملاحظة التي سجلها العلماء الأوربيون حين وصفو صوت اللين (آ i) بقولهم أن مقدمة اللسان ترتفع إلى نقطة بعيدة في الفم .

كذلك يرتب سيبويه أصوات اللين ترتيبا يدل على دقة في الملاحظة فيرى أن الألف تأتي في الترتيب الأول من حيث سعة المخرج ثم الياء ثم الواو وهذا ملاحظ إذ أنه عند النطق بصوت اللين i يكون الفك العلوي والسفلي متباعدين كما أن الشفتين منفرجتان .

أما الياء (i) فإن المخرج كذلك يتسع لكن ليس بدرجة اتساعه مع صوت اللين (آ a) فهما منفرجتان عند نطق كلا الصوتين .

أما صوت اللين الواو (وُ u) فإن المخرج متسع بيد أنه أقل من اتساع مخرج الياء (i) كما أن الشفتين تأخذان شكلا دائريا وتكونان مضمومتين .

هذه ملاحظات سيبويه حول الأصوات وهي ملاحظات شغلت طائفة من الباحثين

(1) سيبويه ص ٤٠٦ .

الأوربيين منذ مطلع القرن العشرين لأنها كانت ملاحظات تتسم بالدقة والمنهجية العلمية والوصفية فتناولوها بالتحليل والتفسير وقارنوها بعلم الأصوات عندهم ، فلقد رأى المستشرق شاده أن ملاحظات سيبويه تشبه إلى حد كبير ملاحظاتهم حول الأصوات فقد كتب مقالا في مجلة الجامعة المصرية العدد الثاني الصادر في يوليو سنة ١٩٣١ بعنوان « علم الأصوات عند سيبويه وعندنا » كما أنه ألف كتابا بعنوان سيبويه ودراسة علم الأصوات سنة ١٩١١ م .

(هـ) الدراسات الصوتية بعد سيبويه :

لو أن الدراسات الصوتية بعد سيبويه سارت على النهج الذي سار عليه سيبويه لكانت لدينا ثروة في علم الأصوات لا تضاهى ، ولخرجت الدراسات الصوتية من نطاق المذهب الاتباعي التقليدي الذي سار عليه من جاء بعد سيبويه إلى المنهج العلمي الوصفي التجريبي ، الذي تتباهى النهضة العلمية الغربية بالتوصل إليه في القرن العشرين .

لكن الذين جاءوا بعد سيبويه لم يكن لديهم حظ وافر من رهافة الحس ودقة الملاحظة ، كما أنهم لم يشقوا على أنفسهم بمواصلة السير في البحث عن ماهية الصوت وما يتعرض له وأسباب حدوثه ، بل اكتفوا بترديد ما قاله سيبويه حرفيا أو تحوير النص أحيانا بإبدال كلماته بكلمات مماثلة تؤدي نفس المعنى . حتى ابن جني بالرغم من عبقريته المبدعة ومنهجه العقلي القياسي الذي التزمه في معظم كتاباته ، نراه في كتابه سر صناعة الاعراب ــ وهو كتاب يبحث في الأصوات ــ يعتمد على سيبويه وينقل حرفيا تعريفه[1] للصوت المجهور والصوت المهموس ولمعنى الاطباق .

وكذلك نلاحظ أن الزمخشري في كتابه[2] المفصل ينقل عن سيبويه فكرة تعريف الصوت المجهور والمهموس لكنه لم يعطها حقها من الشرح والتفسير بل أنه اقتضبها وأوجزها .

(١) سر صناعة الاعراب ص ٦٩ ، ٧٠ .
(٢) المفصل في علم العربية ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

والقول نفسه ينطبق على ابن الجزري في كتابه النشر في القراءات العشر إذ أنه لا يأتي بشيء جديد[1] .

لذا لعلنا على صواب حين نقول أن الدراسات الصوتية ـــ ويا للأسف ـــ قد وقفت عند ملاحظات سيبويه ومصطلحاته ولم يكتب لها التجديد ما عدا ملاحظات ابن جني في كتبه وفي مقدمتها سر صناعة الاعراب ، وملاحظات الفيلسوف الشيخ الرئيس ابن سينا في رسالة « في أسباب حدوث الحروف » هذه الرسالة نشرها وحققها الأستاذ محب الدين الخطيب وطبعها في القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ ، كما أن الرسالة نفسها نشرت في طهران بتحقيق ناتل خانهرا سنة ١٣٣١ هـ .

ولا نستطيع في الوقت الراهن التعريف بالرسالة لأننا لم نطلع عليها غير أن الأستاذ إبراهيم أنيس في كتابه الأصوات اللغوية ، الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٥ م ذكر تعريفا لها ، وأورد بعض الملاحظات حولها .

والسبب الذي نراه في عدم تقدم « علم الأصوات » بعد سيبويه وابن جني ، يرجع إلى أن العلماء الذين جاءوا من بعدهما قد شغلوا أنفسهم بالشروح والتعليقات المتأثرة بكلام المناطقة والفلاسفة .

كما أن الأحداث السياسية التي مرت بها الدولة الاسلامية قد تكون من الأسباب المباشرة التي أثرت في حياة كثير من العلوم إما بالظهور والبروز على حساب الأخرى أو الاختفاء من مسرح الحياة العقلية .

بقيت كلمة لابد أن أقولها هو أن العرب في مطلع القرن العشرين ونتيجة لاتصالهم بروافد الفكر الغربي سواء أكان بطريق مباشر أو غير مباشر تنبهوا لما آلت إليه علومهم وحياتهم العقلية من فتور ، وتنبهوا لتراثهم اللغوي فاستفادوا من الاحتكاك الثقافي الذي تعرضوا له فراحوا يبحثون على ضوء النظريات الجديدة والاصطلاحات العملية الحديثة في العلوم والتراث العلمي الاسلامي بما فيها علوم اللغة والأصوات فرأينا للدكتور السعران رسالة

---

(١) النشر في القراءات العشر جـ ١ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ .

دكتوراه في جامعة لندن عن دراسة الأصوات عند العرب ، أثبت فيها أن العرب تعرضوا لجميع المباحث الصوتية التي تكلم عنها علماء الغرب . .

كما أن الأستاذ إبراهيم أنيس ألف كتاب الأصوات اللغوية وهو بحق يعتبر من الرواد المعاصرين الذين لهم قصب السبق في التعريف بالأصوات . وهكذا كان للاتصال الثقافي أثره في اكتشاف العرب لأنفسهم ، فأخذوا يبحثون في تراثهم ليعرفوا العالم بمدى إسهامهم ، ولعل بحوث المستقبل تكشف لنا بعض الحقائق المطمورة لا سيما أن الكثير من التراث العربي لا زال بعضه يرقد في المتاحف على شكل مخطوطات ورسائل صغيرة لم يهيأ لها بعد من يكتشفها ويحققها .

والله نسأل التوفيق ،،،

المراجـــع

(أ) المراجع العربية :

ـ د. إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧١ م .

ـ د. إبراهيم أنيس ، في اللهجات العربية ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٥ م .

ـ ابن الجزري ، محمد بن محمد بن علي بن يوسف ، النشر في القراءات العشر .

ـ ابن جنى ، أبو الفتح عثمان ، سر صناعة الاعراب ، الطبعة الأولى ، إدارة إحياء التراث القديم ١٩٥٤ م .

ـ ابن النديم ، الفهرست .

ـ أحمد عبد الغفور عطار ، الصحاح ومدارس المعجمات العربية ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٦٧ م .

ـ د. أحمد كمال زكي ، الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري .

ـ د. تمام حسان ، اللغة العربية مبناها ومعناها ، القاهرة ١٩٧٣ م .

ـ د. الحديثي خديجة ، كتاب سيبويه وشروحه ، ساعدت وزارة التربية على نشره .

ـ جان كانتينو ، دروس في علم الأصوات ، ترجمة صالح القرماوي ، تونس ١٩٦٦ م .

ـ الخليل بن أحمد ، العين ، تحقيق د. عبدالله درويش ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦٧ م .

ـ د. درويش عبدالله ، المعاجم العربية ، القاهرة ١٩٥٦ م .

ـ الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر ، المفصل في علم العربية ، الطبعة الثانية ، بيروت .

ـ د. أبو السعود صابر بكر ، القياس في النحو العربي من الخليل إلى ابن جني ، مكتبة الطليعة أسيوط ، دار الهنا .

ـ السيوطي جلال الدين عبدالرحمن ، بغية الوعاة ، دار المعرفة ، بيروت .

ـ سيبويه ، الكتاب ، بولاق طبع بالاوفست ، مكتبة المثنى ، بغداد .

ـــ شوقي ضيف ، المدارس النحوية ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف .
ـــ علي عبدالواحد وافي ، علم اللغة ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٦٢ م .
ـــ د. مهدي المخزومي ، في النحو العربي ، بيروت ١٩٦٤ م .
ـــ د. مهدي المخزومي ، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو .
ـــ المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، طبع في طهران ، المكتبة العلمية .

(ب) المراجع الأجنبية :

1- Blanc, H. The Fronting Of Semitic G. and the Qal gal Dialect Split in Arabic. Proceeding of the International Conference on Semitic Studies; Jorusalem 1966 P. 7-37-
2- John A. Haywood, Arabic Lexicography. London, 1965.
3- Rabin, C. Ancient west Arabian. London, 1951.
4- The Principles of theInternational Phonetic Association. London, 1949.